جبل البركل: دوره في تتويج الملوك الكوشيين
من خلال النصوص ودلالاتها التاريخية

جمال جعفر عباس الحسن

ملخص: عرفت الحضارات السودانية القديمة معبودات كثيرة، محلية ومستجلبة. وكان أعظمها خلال تلك المسيرة ما عرف بالمعبود آمون، الذي ساد في الفكر والممارسة الدينية في الحضارة الكوشية، وهي حضارة سودانية سادت بين منتصف القرن العاشر قبل الميلاد وحتى منتصف القرن الرابع الميلادي، تمثلت في مملكتي نبتة ومروي. وقد استقى الكوشيون أغلب تعاليمهم الدينية الرسمية من مصر؛ فالمعبودات التي كانت تعبد في المعابد الكوشية، يطابق أغلبها المعبودات المصرية. ويعد جبل البركل أحد أهم مواقع هاتين المملكتين. وتنبع أهميته في احتضانه لعدد من المعابد أهمها معبد آمون الكبير، الذي بدأت المرحلة الأولى في تشييده من زمن المملكة المصرية الحديثة، واكتمل في العهد الكوشي الأول. وقد ظل هذا المعبد من أهم معابد كوش على الإطلاق، حيث كانت تتم فيه مراسم تتويج الملوك في (نبتة)، الفترة الأولى من عمر الدولة الكوشية. وعندما انتقل مركز الثقل السياسي إلى مروي في الجنوب، ظل معبد جبل البركل محتفظاً بأهميته الدينية، وكان الملوك يقومون برحلة تتويجهم إلى هذا المعبد. تناقش هذه الورقة الشعائر والممارسة المرتبطة بطقوس التتويج، استناداً على جملة المخطوطات المتوافرة، لتقدم رصداً موجزاً لما كان يتم في تلك المناسبة من إجراءات تبرز الدور المركزي لجبل البركل، من ناحيتي العقيدة السائدة والممارسة العملية، خلال فترة تعد الأطول استقراراً سياسياً وإدارياً في تاريخ السودان القديم.

Abstract: Ancient Sudanese civilization، witnessed a number of gods and goddess either local or foreign in their spiritual life. The most glorious of which was Amon، who was well known in the mythology and religious practice in the kushite civilization، with its Napatan and Meroitic phases dated to the mid of tenth century B.C. to the fourth century A.D. The kushite people have borrowed most of their religious believes from Egypt. In this context، it is clear that، the gods worshiped in kushite temples were identical to the Egyptian gods. Jebel Barkal is the most important Archaeological site in the kingdom of kush. It is composed of many temples. The most important of them is Amon temple، which was established during the Egyptian New kingdom and was completed during the early Naptan period. This temple represented the place of coronation of the Kushite kings.Through analyzing the text of the coronation stelae، related to the coronation practices، we can sum up a conception and cast light on the role of thr «Holy Mountain»، as Jebel Barkal was widely known، not only as a religious centre but also as a place where kushite kings were election and removal.

تقدمـة

تُعد بيئة القارة الإفريقية منبع الحضارات ونشوئها، كما أثبتت الدراسات الآثارية والتاريخية. فهي قد لعبت دوراً مميزاً ومؤثراً في مسار وتكيف شعوبها على مر الأزمان المتعاقبة، منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى يومنا هذا. فقد تكاملت العوامل البيئية من مناخ وجغرافية وجمورفولوجية ونحوها، والعناصر الاثنية والتكوينات القبلية والتوزيع السكاني، الذي تحكمت فيه عناصر عديدة لم تنفك عن بعضها البعض في تكوين الوضع المتفرد الحالي للقارة الإفريقية، بمختلف مناطقها الجغرافية ودولها وتكويناتها المتعددة والمؤثرات الخارجية التي امتزجت بها وعايشتها.

العدد الثامن عشر - رجب ١٤٢٩هـ - يوليو ٢٠٠٨م
(ص ص ٤١-٥٠) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

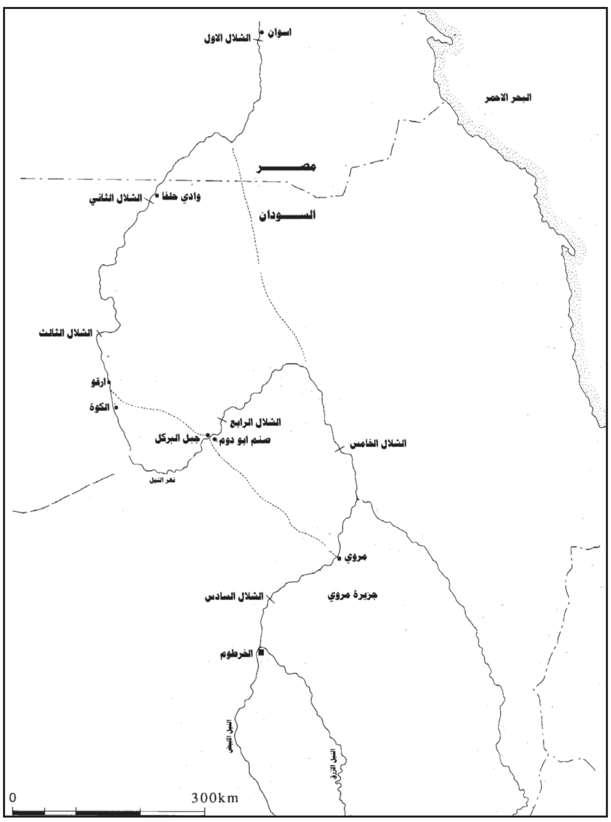
وقد كانت هذه القارة السمراء بؤرة حضارية كشأن غيرها في بعض الحقب التاريخية، تؤهل وتؤثر بدرجات متفاوتة ومتباينة على أصول ومجريات حضارات أخرى منذ أقدم العصور، بما لها من إمكانيات كبيرة وهبتها لها الطبيعة. وكان للسودان، بدوره، قدره من هذه الإمكانيات، التي شكلت منه مسرحاً عامراً بالعديد من الثقافات والحضارات المحركة للتواصل والتفاعل، لتنتج هذا التمازج الفريد في واقعه المعاصر.

وعلى الرغم من هذا ظل الإنسان – بوجه عام – عبر تاريخه الطويل يقف عاجزاً عن السيطرة بكل ما يحيط به. لذلك عرفت كل حضارات العالم القديم قوة عليا أو معبوداً أعظم يلجأ إليه الإنسان عند الحاجة ولحظة الضعف، بما تمليه عليه الفطرة في بحثه عن تلك القوة المطلقة، التي تقف خلف هذا الكون وفوقه. وفي ذات الإطار عرفت الحضارات السودانية القديمة قبل الميلاد، معبودات كثيرة، محلية ومستجلبة، كان أعظمها خلال تلك المسيرة ما عُرف بالمعبود آمون، الذي ساد في الفكر والممارسة الدينية في الحضارة الكوشية. وإزاء هذا الاعتقاد والإيمان بهذا المعبود، كانت هناك حاجة إلى وسيط بين الإنسان والمعبود؛ فظهر ما يسمى بالكهنة الذين يقربون الإنسان زلفى إلى المعبود، فصار الكاهن هو الوحيد الذي يستطيع مخاطبة المعبود، ويقوم بدوره، في مخاطبة العامة نيابة عن المعبود في شكل قواعد وأوامر، يزعمون أنها صدرت إليهم من المعبود العظيم معبود الجميع. وتعد هذه القواعد أوامر لا ترقى لمستوى النقاش؛ لكونها مشمولة بالعناية والقداسة الإلهية. ويمكن القول إن «كوش» مملكة قامت على القانون الاعتقادي المستمد من دين الدولة المُجمع على سريانه من أفرادها، الشئ الذي يجعل هذا الإجماع عملا دينياً على صعيد الفرد أو الجماعة. ذلك لان من الثابت عندهم وجود حياة أخرى بعد الممات، وهذا باد لنا في شكل الأهرامات والمدافن التي خلفوها، ونوع الأدوات والاثاث الجنائزي الذي يدفن مع الموتى، اعتقاداً بأنه يعينهم في الحياة الأخرى.

ماهية الحضارة الكوشية

سادت الحضارة الكوشية ذات الجذور المحلية، بين منتصف القرن العاشر قبل الميلاد وحتى منتصف القرن الرابع الميلادي. وكانت حدود هذه الحضارة في أقصى اتساع لها تضم سودان وادي النيل الشمالي والأوسط، وبعض الأقاليم الواقعة إلى الشرق والى الغرب من النيل. وامتد نفوذها السياسي في مراحلها المبكرة ليشمل مصر حتى حدود فلسطين. وقد عرفت هذه الحضارة باسم كوش لدى الشعوب الأخرى، مثل المصريين والآشوريين والعبرانيين والاكسوميين (الخريطة١).

استقى الكوشيون من مصر أغلب تعاليمهم الدينية الرسمية؛ فالمعبودات التي كانت تعبد في المعابد الكوشية، يطابق أغلبها المعبودات المصرية. فقد عدّ الكوشيون الأوائل «آمون» المعبود الأعلى، ومنه استمدوا حقهم في العرش والملك (Leclant,1965: 318). وقد انتشرت معابد المعبود آمون في أنحاء المملكة، وتكرر ظهور هذا المعبود على موائد القرابين والمسلات الملكية (Reisner 1918: 99). وعلى الرغم من قلة النصوص الكوشية التي تناولت الوصف المباشر لصفات المعبود آمون، فإن ما بقى منها يوضح أنَ الكوشيين



الخريطة ١: موقع جبل البركل وبعض مواقع دولة كوش.



اللوحة ١: منظر عام لموقع جبل البركل.

أضافوا إلى هذا المعبود الصفات نفسها التي اكتسبها في مصر (الزاكي ١٩٨٣ : ٢٨)، بدليل اعتقاد ملوك كوش أنَ المعبود آمون هو من يهب معطي الملكية والنصر.

وعلى الرغم من أنَ المعبود آمون كان متغلغلاً في شؤون الحياة الخاصة بالكوشيين، غير أنهم عرفوا وقدسوا معبودات أخرى بجانبه. فقد وردت أسماء معبودات مصر القديمة، مثل: رع وبتاح وأتوم وخنوم وحورس وأوزيريس وإيزيس وسخمت وموت وأنوبيس وساتس وحتحور وغيرهم، متبوعة بصفاتهم في معظم المخطوطات الملكية وفي نصوص المعابد. ولم يكن تصوير هذه المعبودات على جدران المعابد سوى تعبير عن النمط المصري في تزيين المعابد بصور شتى، أن تكون المعبودات بجانب صور المعبود الرئيس (الزاكي ١٩٨٣ : ٣٨). ونلاحظ كذلك أنَ هناك ارتباطاً وثيقاً بين الدين والدولة في هذه الحضارة. فقد تميز الملوك الكوشيون بالذكاء والفطنة الدينية بغرض فرض سيطرتهم على كل الجوانب السياسية في الدولة، وربط أصلهم المقدس الذي ينحدر من المعبودات بعقلية الشعب ليرضخ لهم (Vercoutter 1960: 70). لذلك أقيمت الشعائر المرتبطة بتتويج الملوك في الاتجاه الذي يربط هذا المعبود بالملك والدولة وشرعيتها.

الجبل المقدس

يُعرف جبل البركل «بالجبل المقدس الطاهر»، ويقع على الضفة اليمنى للنيل بالقرب من مدينة كريمة (الخريطة ١ واللوحة ١). وتنبع أهميته في احتضانه لعدد من المعابد، أهمها معبد آمون الكبير، الذي بدأت المرحلة الأولى في تشييده منذ زمن المملكة المصرية الحديثة (١٥٥٢-١٠٦٩ ق.م)، واكتمل في الفترة النبتية الأولى (اللوحة ٢). وقد ظل هذا المعبد أهم معابد كوش على الإطلاق، حيث كانت تتم فيه مراسم تتويج الملوك في الفترة الأولى من عمر الدولة الكوشية. وعندما انتقل مركز الثقل السياسي إلى مروي في الجنوب، ظل معبد جبل البركل محتفظاً بأهميته الدينية، وكان الملوك يقومون برحلة تتويجهم إلى هذا المعبد.

والجدير بالذكر أنَ موقع جبل البركل المميز كان قد لفت أنظار المصريين منذ عهد المملكة المصرية الحديثة، وربطوه ببعض المفاهيم الدينية المصرية، وأطلقوا عليه اسم «جو وعب»، أي الجبل الطاهر. كما أن أهميته لم تقتصر فقط على الناحية الدينية، بل إن الموقع الجغرافي أكسبه أهمية تجارية، بحيث يربط الطرق التجارية عبر صحاري البيوضة والعتمور وقلب إفريقيا بمنطقتي النوبة السفلى ومصر (الخريطة ١).

وقد تناثرت المعابد في مملكة كوش حول مركزين



اللوحة ٢: موقع معبد آمون من أعلى جبل البركل.

رئيسيين: أولهما في الشمال ومحوره نبتة العاصمة الدينية والسياسية التي بها موقع جبل البركل المقدس؛ وثانيها في الجنوب ومحوره مروي، التي انتقل إليها مركز الثقل السياسي بعد ذلك. وتندرج هذه المعابد، من حيث الطرز المعمارية تحت نوعين رئيسيين: النوع الأول هو طرز المعابد الآمونية للمعبود آمون. أما النوع الثاني فهو طراز معابد المعبود الأسد (Hakem,1971: 295). وقد ارتبط النوع الأول منذ بداية المملكة بشعائر وطقوس تتويج الملوك بواسطة الكهنة. وحظيت نبتة العاصمة المقدسة بعدد من هذه المعابد، من أهمها معبد آمون الكبير الذي ارتبط في عقائد الكوشيين باستقبال الزيارات الملكية التقليدية الخاصة بمراسم التتويج. ولعل ذلك المفهوم لدور المعابد الآمونية كان واحداً من الأسباب، التي جعلت الكوشيين يحجمون، إلى حد ما، عن بناء معابد آمونية في الجنوب (على الرغم من وجود معبد آمون آخر كبير داخل المدينة الملكية في مروي). كما صار لمعبد آمون الكبير في جبل البركل أهمية خاصة، ارتبطت باتمام مراسم التتويج لعدة أسباب، لعل من أهمها وضع عدد من الملوك تماثيلهم ولوحات نصرهم في هذا المعبد، مثل الملوك بيي (بعانخي) وتانوت أمنى وأسبلتا وحرسيوتف. كما شهدت مكانة هذا المعبد عند الملوك الهبات والإصلاحات، التي ذكر بعضهم تقديمها أو القيام بها (Dunham 1970).

وعلى مدى القرون المتعاقبة، قامت معابد آمونية أخرى في جبل البركل أقل فخامة من المعبد الكبير، وتعد بمثابة معابد ثانوية وليس لها علاقة بمراسم التتويج. وبداهة لا تمثل معابد جبل البركل المكتشفة كل المعابد الآمونية التي شيدت عبر الحقب في هذا الموقع المقدس؛ وربما تكشف الدراسات الآثرية المستمرة في الموقع عن معابد أخرى. كما يضم هذا الموقع مجموعتين صغيرتين من الأهرامات بنيت بالقرب من الجبل من جهتي الجنوب والغرب، وقصرين ملكيين ينتميان إلى فترتين مختلفتين من عمر الدولة. وهذا يؤكد استمرار قدسية هذا الموقع وأهميته الدينية والسياسية.

ولاية العرش

إن الميراث هو الذي نظَم استحقاق العرش في الحضارة الكوشية، فقد اعتقد الكوشيون أن اختيارهم للملك وولاية العرش يتم وفق نظم وراثية محددة. وكان يغلب فيه تولي أحد الإخوة الملكيين لعرش أخيه بعد مماته. ويتم اختيار الملك يتم عن طريق الكاهن الأعلى والقواد والزعماء في حدود الأسرة المالكة، وهي عملية لا تتم بمطلق الحرية إنما تحكمها قواعد ومعايير ثابتة. وفي بعض الأحيان يختلف هذا النظام، خاصة في ولاية الملوك الأقوياء الذين كانوا يشيرون – بطريقة أو أخرى – للأخ الذي سيخلفهم، على أسس من المصلحة العامة. وعلى ذلك يكون الملك الذي سيتولى العرش محدداً مسبقاً قبل وفاة سلفه، ولكن لا يخرج عن محيط أحد الإخوة الملكيين، أو أبناء الأخوان في الأسرة المالكة، أو أبناء الأخوات (محمد علي وعبدالله٢٠٠٠: ٩٢). ويظهر ذلك في المخطوط الذي خلفه أسبلتا. ولعل ما فعله أسبلتا كان حيلة سياسية لانشقاق حدث في الأسرة الحاكمة، أو ربما لظروف غير عادية حدثت خلال فترة حكم الملك أنلماني أخيه الأكبر، حسمها أسبلتا بالقوة ونسبها لأمون.

شعائر وطقوس تتويج الملوك

إن انتشار المعابد الآمونية في أنحاء مملكة كوش بصورة عامة، وبجبل البركل بصورة خاصة، يدل على نظام كهنوتي تديره هيئة متخصصة من الكهان تباشر الشعائر وترعى المعابد وأملاكها. ومن المؤسف أنَ تكون المصادر عن ذلك في النصوص المكتوبة بالهيروغليفية المصرية شحيحة ومتفرقة. وفي الواقع لم يُعثر على أي نص يتناول أمر الكهان وطبيعة العبادات بطريقة مباشرة (Dunhamm 1970). وكل المعلومات عن هذين الأمرين مأخوذة من إشارات عابرة حوتها اللوحات الملكية (اللوحة ٣)، أو عبرت عنها المشاهد الدينية المصورة على الآثار الباقية. وعلى الرغم من وفرة المصادر والمخطوطات المكتوبة بالحروف المروية، يبقى العجز في فك طلاسم معاني تلك المخطوطات حائلاً دون الفهم الدقيق لمعاني الألقاب الدينية التي وردت فيها. ومن تلك المصادر المكتوبة بالخط الهيروغليفي، يمكن معرفة طبيعة أدوار الكهنة الذين قاموا على خدمة المعابد الآمونية، وعن نوع الشعائر الممارسة والمرتبطة بطقوس التتويج، وهذا لا يتأتى إلا من خلال دراسة المخطوطات الملكية المعروفة باسم «لوحات التتويج». وهي مخطوطات



اللوحة ٣: اللوحة ملكية كوشية.

ذات أهداف مشتركة أو متقاربة، في كثير من الأحيان؛ لذلك يجوز رصد جميع المشاهد فيها بإيجاز لما تحتمه طبيعة هذه الورقة. وهي تضم صوراً منقوشة على الجزء الأعلى من اللوحة للمعبود آمون في هيئة معينة، واقفاً أو جالساً، أو أن يكون المشهد في أعلى اللوحة تبرز فيه صورتا المعبود والملك يفصل بينهما عمود أو عمودان من الكتابة (Dunham 1970). وسنعرض لما هو متوافر منها في المخطوطات الملكية الكوشية، وما ورد في المصادر الكلاسيكية.

أ- المخطوطات الملكية

استناداً على ما تقدم يبقى الاعتماد على المخطوطات الملكية كمصادر أساسية لمعرفة شعائر وطقوس التتويج، وإنَ كانت المعلومات مستقاة من إشارات عابرة حوتها اللوحات الملكية. وعلى الرغم من التطابق الظاهري فيما ورد فيها لِما كان يمارس، فإن بعض هذه المخطوطات حوت وصفاً لشعائر وأعمال قام بها أصحابها ولم يُعن غيرهم بتسجيلها. ويعتقد أن جميع الملوك كانوا يراعون تقاليد معروفة؛ ولكن بعضهم كان يسترسل في وصف بعض أفعاله الأخرى ويقلل من وصف بعضها الآخر، أو يتجاهل تسجيله. ونورد هنا تصوراً لما كان يتم أثناء تلك المناسبة، وهو مستخلص من نصوص جملة المخطوطات دون الخوض في تفاصيلها الدقيقة، معتمدين في ذلك على كتابات ومؤلفات وترجمات المختصين بمجال الآثار الكوشية.

توحي تلك الكتابات والأعمال أن القرار الإلهي، الذي يأتي عن طريق الوحي أو النبؤة، لم يكن إلا تصديقاً شكلياً لقرار سابق، وكان ذا طابع رمزي بحت، القصد منه إيهام العامة بأن الرب اختار الحاكم الجديد (حاكم وآخرون، ١٩٨٥: ٣٠٤). ذلك لأنَ عامة الشعب لا ينظرون الى مغتصبي العرش بعين الرضا، لكي لا تتعرض القدسية التي يكتسي بها الملك، وقراراته إلى الاهتزاز. لذلك فإنَ الطقوس والشعائر الدينية المصاحبة الى عملية الاختيار والتتويج، هي التي ضمنت استقرار الأحوال السياسية في هذه المملكة.

وكان اختيار الملك يتم عن طريق الكاهن الأعلى والقواد والزعماء في حدود الأسرة المالكة. لذلك لا تتم عملية الاختيار هذه بمطلق الحرية (Reisner 1919: 59)؛ بل يتقيد هؤلاء الكهنة والقواد بقواعد ثابتة في اختيار الملك، ولكن في بعض الأحيان كان يظهر أحد الملوك الأقوياء ويشير، بطريقة أو أخرى، الى الملك الذي سيخلفه؛ فمثلا الملك «شبتكو» كان قد شارك في الحكم مع الملك «شبكو» كحاكم مساعد لمدة عامين (Budge 1907: 1-2). وقد تولى الملك «تهارقو» قيادة الجيش في فترة حكم الملك «شبتكو» (Emery 1965: 217). وخلال السنين الأخيرة من حكم الملك «تهارقا» أشرك ابن أخته الملك «تانوت أمنى» في حكم المملكة، وعندما وصلت أنباء وفاة الملك «تهارقو» نصّب الملك «تانوت أمنى»، الذي كان بعيداً عن المركز، نفسه ملكاً وقام بتجهيزات للذهاب الى نبته ليتوج فيها (Budge 1907: 46) وفي مثل هذه الحالة، يحتمل أن يكون الكهنة قد أطاعوا أوامر محددة فرضت عليهم من رجل قوي (Reisner 1919: 59). وفي كل الحالات كان الملك محدداً مسبقاً قبل وفاة

سلفه من خلال اشتراكه في الحكم مع الملوك السابقين. ولذلك كان جميع القادة والموظفين في مثل هذه الحالات لا يملكون سوى مباركة القرار. أما الكهنة أنفسهم فربما يكون دورهم قاصراً على أجراء الطقوس الدينية اللازمة لمثل هذه الاحتفالات.

بعد عملية الاختيار يأتي التنصيب ثم التتويج، الذي يمثل أقدس مناسبة، وكان يجري في معبد المعبود آمون بجبل البركل. وتعزيزاً لذلك كان الملك يزور عدداً من المعابد الأخرى، كمعبدي المعبود آمون في الكوة «جماتون» وارقو «بنوبس» (Ibid 60)، وغيرها من المعابد الآمونية. ويتباهى بعض الملوك بأن تتويجهم تم برضاء المعبود آمون، وأنَه هو الذي اختارهم وقدمهم للشعب ملوكاً عليهم. كما يقول الملك «بيي» (٧٥١-٧١٦ ق.م) في اللوحة النصر: «الإله يتوج الملوك كما الناس يتوجون الملك، أما انا فقد توجني الإله آمون»). وكانت احتفالات التتويج ذات طابع ديني، فالحكم إلهي والملك تنتقل اليه سلطاته من المعبود مباشرة (بريستد ١٩٦١: ٤٧). والتتويج هو عملية تسلم القدرة والإرادة الإلهية، فالملك لا يعد ملكاً إلهياً الا بعد اكمال طقوس وشعائر التتويج وتسلم إشارة الملك.

فعلى سبيل المثال وبدراسة وصف الملك «أسبلتا» (٥٩٣-٥٦٨ ق.م) للأحوال في لوحته بعد وفاة أخيه الملك «أنلماني» (٦٢٣-٥٩٣ ق.م)، يتضح لنا أنَ دور الكهنة في الاختيار المبدئي كان غامضاً، ويبدو ثانوياً. في البداية دار الحوار عن الاختيار بعيداً عن المعبد، وبين فئات لا تضم الكهنة. فقد تجمعت الطبقات العليا من المجتمع والجنود ليبحثوا أمر انتخاب الملك الجديد، ويضعون الأمر، بعد ذلك، بين يدي المعبود آمون. ونعتقد أنه لولا الخلافات الخفية التي رافقت ولاية «أسبلتا»، لتم الاتفاق على خليفة «انلماني» قبل اللجوء الي المعبد. وقد وصفت وفاة الملك «أنلماني» وخلو العرش وصف بجملة قوية ومعبرة في اللوحة تتويج الملك أسبلتا تقول: «فقد وضعت البلاد في كف تهديد الفوضى والدمار، ووصف عامة الشعب حالتهم بأنهم أصبحوا مثل قطيع من الأبقار فقد راعيه...» (Budge 1912). هذه الجملة تفتح حواراً عن التبني الإلهي والملكية الكونية، نجده متناثراً على السطور اللاحقة ومصاغاً بشكل درامي على هيئة سلسلة من الحوارات، تدور بين الحضور لحظة تجمهرهم في العاصمة، وكأنها صورة حيه لحوارات تلقائية نتيجة لانتظار مفاجأة ما، وكأن الجميع في حيرة من أمرهم وفي انتظار اقتراحات الحضور. «تعال دعنا نجعل إلهنا يتصرف» (Ibid)، تتكرر هذه العبارة أكثر من مرة في السطر الواحد ولعدة سطور. ونلاحظ هنا أن الملك لم يرشح نفسه من خلال النقش نفسه، ولكن كانت ترد عبارات التزكية على ألسنة الحضور وبالتبادل فيما بينهم: «إنه - آمون يهب الملك لابنه الذي يحبه...» (Budge 1912).

ومن ظاهر ما جاء في اللوحة الملك «أسبلتا» يمكن ملاحظة أنه حينما يثار خلاف حول ولاية العرش، وهو أمر نادر الحدوث، كان كهنة المعبد الكبير بجبل البركل يشاركون الفئات الأخرى في تحديد الوريث الشرعي بطريقة خفية، وذلك من وراء تفسيرهم لرغبة المعبود.

وعندما تكتمل الاستعدادات يذهب الجميع الي المعبد، حيث يدخل الكهنة وممثلو الشعب وبصحبتهم أخوان الملك بما فيهم «أسبلتا» نفسه. «دخل قادة جلالته وموظفو القصر الى المعبد واستلقوا على بطونهم أمام الاله، وقالوا جئنا إليك يا آمون رع سيد عروش الأرضيين ساكن الجبل المقدس لتعطينا سيدنا ومنقذنا» (Ibid). وهكذا يوضع الأمر بين يدي المعبود آمون ليختار لهم ملكهم من بين الإخوة الملكيين المرشحين. ومن ثم يتم عرض أخوان الملك أمام المعبود، ولكن لم يُختار أي واحد منهم، ثم عرضوا بعد ذلك أخا الملك «ابن آمون وابن موت (زوجه آمون) سيدة السماء ابن رع أسبلتا» (Ibid)، الذي وافق عليه المعبود ملكاً. وربما كان يحمل صفات الملك قبل اختياره من قبل آمون. وبعد عرض «أسبلتا» أمام المعبود آمون، يقول المعبود «إنَه هو الملك سيدكم ومنقذكم، هو الذي سيبني كل معابد الشمال والجنوب، وهو الذي يتعهدكم بالعطايا» (Ibid). وهذا المشهد يجب أن يفهم كإعلان الهي أمام أمراء الأسرة المالكة والحاشية والكهنة داخل المعبد.

بعد ذلك يدخل صاحب الجلالة ليتوج أمام أبيه آمون رع سيد عروش الأرضيين. وتكتمل مراسم التتويج بطلب من «أسبلتا» يوجهه للمعبود آمون: «ضع ذلك الغطاء الملكي (التاج) على رأسي وامنحني الصولجان... ويرد الإله لك

غطاء رأس أخيك أنلماني...» (Ibid). وهنا لاول مرة يخاطب «أسبلتا» المعبود بعد أن اصبح ابنه المحبوب. ومن ثم يطلب الملك الحياة والطمأنينة والعيش الرغيد والحكمة الخ...، وما عليه إلا أنَ يرد بالإيجاب «لك ما طلبت» (Ibid).

وهناك حالات أخرى لمراسم وشعائر تتويج الملوك، كانت تتم في المعابد الرئيسية في الشمال (نبتة)، بوصفها رغبة ملكية كان يعبر عنها الملك الجديد، وهي زيارة معبد البركل المقدس، معقل المعبود آمون. وقد ورد ذلك في مخطوطة الملك «آمون نوتي يركي» (٤٣١-٤٠٥ق.م)(Macadam 1949) الذي أبدى رغبته في زيارة أبيه «آمون رع الذي في الجبل المقدس»، وفي اللوحة الملك «حرسيوتف» (٤٠٤-٣٦٩ ق.م) الذي تلقى في رؤية منامية أمراً إلهياً يحضه على القيام بزيارة بيت المعبود «آمون نبتة» (Budge 1912). وفي اللوحة الملك «نستاسن» (٣٣٥-٣١٠ ق.م) الذي دعاه المعبود «آمون نبتة» لزيارته (Ibid). وهذا يؤكد حتمية المسيرة الملكية لمعبد جبل البركل المقدس للقيام بعملية التتويج. فقد علل الملك «آمون نوتي يركي» زيارته لمعبد جبل البركل في كلمات خاطب بها اله هذا المعبد جاء فيها «لقد أتيت أمامك يا والدي الفاخر، يا والد الالهه لتعطيني الملك.. «(Macadam 1949). وعلل «حرسيوتف ونستاسن» الزيارة بأسباب مماثلة، عبر عنها أولهما في رجائه للمعبود «ليمنحه أرض نحسي»، وعبر عنها ثانيهما من خلال زعمه «بأنَ المعبود استجاب لصلاته فأعطاه ملك تاسيتي (أرض القوس)، وتاج حرسيوتف، وقوة الملك بيي» (Ibid).

وإذا أخذنا ما علل به هؤلاء الملوك طوافهم بالمعابد الآمونية، وخاصة معبد آمون بجبل البركل المقدس، بظاهر ما يعنيه قولهم، فربما يقودنا ذلك إلى فهم خاطئ للطريقة المتبعة لدى الكوشيين في ولاية عرش المملكة. فالثابت أنَ الملوك الثلاثة المذكورين، تم اختيارهم المبدئي للولاية والعرش في مروي (بعد انتقال المركز السياسي إليها)، التي تقع الي الجنوب قبل حلولهم بمعبد جبل البركل والمعابد الأخرى في الشمال (الزاكي ١٩٨٣: ١٠٥).

كان الملوك الكوشيون، وبصفة خاصة الملك بعانخي، يعتقدون أن اختيارهم للمُلك يتم وهم بعد أجنة في الأرحام. حيث كان نظامهم الوراثي يغلب فيه تولي أحد الأخوة الملكيين لعرش أخيه بعد وفاة الأخير (Macadam 1949). لذلك، كان التلهف للقيام بالمسيرة والطواف الملكي والادعاء بأن «آمون» في معابده المختلفة، وخاصة معبد جبل البركل المقدس، كان يمنح القوة والسلطان للملك، لم يكن يهدف لأكثر من نيل التتويج والاعتراف الإلهي، وإضفاء هالة من القدسية على حكم أولئك الملوك.

بعد عملية التتويج والاعتراف الإلهي، اعتاد كل ملك تقديم القرابين والهدايا، وإقامة الولائم، تكريماً للمعبود. ويبدو أن الاحتفالات كانت تدوم أياماً عديدة، وتقدم الأطعمة والخمور (الزاكي١٩٨٣: ١١٠). كما احتوت المخطوطات الملكية على أدلة نصية ومرسومة على مشاركة الأم الملكة بالحضور عند تتويج ابنها، أو اللحاق به حيثما يتوج، لمشاهدته وهو جالس على عرش المملكة. وكان الملك الكوشي «تهارقو» أول من أخبر عن دعوة الأم لمشاهدة ابنها وهو جالس على العرش (Macadam 1949). كذلك يروي الملك «آمون نوتي يركي» في مخطوطته كيف سعدت أمه برؤيته متوجاً (Ibid). وهذا يرجح إن اؤلئك النسوة اشتركن في مراسم وطقوس تتويج جميع الملوك.

ب- المصادر الكلاسيكية:

نلاحظ أن روايات الكُتّاب الكلاسيكيين لم تغفل التعرض لأمر كهنة المعابد الآمونية، ولكن حدّة الاستفادة منها أنها مصادر سماعية. فقد وصف هؤلاء طريقة اختيار الملك الذي سيتوج بشيء من التفصيل. يقول هيرودوت: «...لديهم نظمهم الخاصة بهم والتي تختلف عن نظم بقية الشعوب، ومن بين تلك النظم الغريبة طريقة انتخابهم للملك، فمن بين المتنافسين جميعاً يفوز بالتاج من هو أطولهم قامة وأقواهم بنية» (Herodotus 1946- 1950). وقد وصفهم أيضا ديدور الصقلي بقوله «... لهم عادات كثيرة تختلف عن عادات بقية الشعوب، خاصة عاداتهم المتعلقة بانتخاب الملك. تبدأ العملية بانتخاب الكهنة لأحق المرشحين لمنصب الملك، والذي يمسه تمثال الإله يصبح ملكاً عليهم، ويخضعون له خضوعاً تاماً طالما السلطة منحت له من قبل الإله» (Diodours 1952-1955). أما استرابو فهو يذكر تفاصيل تختلف، إلى حد ما عما ذكره هيرودوت وديدور حيث يقول «ينتخبون

ملوكهم من بين الذين يتميزون بالجمال والقدرة الفائقة على عملية الرعي أو الرجولة والشهامة أو الثروة الطائلة» (Strabo 1917-1932).

خلاصة

يتضح من خلال هذا العرض أنَ التفاصيل التي وردت في لوحات التتويج لملوك كوش، الذين ذكرنا بعضاً منهم كأمثلة لما تحتمه علينا طبيعة هذه الورقة من إيجاز، ربما تحوي على شئ من التضخيم. ومع ذلك فأنَ المبالغة مهما كان حجمها لا تنفي الأساس، ولا تختلق تلك الأحداث. ويبدو أنه كان لعلية القوم دور في وراثة أي ملك لملك. أما بقية ما تحويه هذه النصوص، فيبدو من صياغتها المحكمة وتسلسلها أنها من تأليف الملك أو من ناب عنه في كتابة النقش (اللوحة الملك أسبلتا). وفي كل الحالات تميز الأمر عند هؤلاء الملوك بطابع خاص، استُغل في تدعيم السلطة الدنيوية والدينية للملوك، وذلك بإضفاء نوع من القدسية المستمدة من إرادة المعبود آمون عليها.

ويتضح، أيضا، حرص الملوك الكوشيين على القيام بمراسم وطقوس التتويج، وما كان يؤديه كل ملك من شعائر. ويمكن أنَ نخلص الى أنَ تولي السلطة كان يتم عندهم عبر مرحلتين:

المرحلة الأولى: هي مرحلة الاختيار المبدئي، وفيها يتم اختيار الملك وفق أسس وراثية معلومة، تأتي خلال حياة الملك الحاكم باختيار ما يمكن أن نسميه اليوم «ولي العهد» على أن ولي العهد لابد له من مباركة إلهية حين يأتي دوره في تولي العرش. ولإعطاء نفسه ذلك الحق، فلا بد من تبرير، كالرؤيا المنامية في مثل حالتي الملكين حرسيوتف ونستاسن. أما عدم اتفاق المعنيين بأمر الاختيار فيعرقل إكمال مراسيم التتويج النهائية، كما حدث في حالة الملك «أسبلتا».

المرحلة الثانية: هي مرحلة التتويج النهائي، ولتحقيقها كان على الملك المختار أن يشد رحاله الى المعبد المركزي في جبل البركل المقدس، ثم يطوف بالمعابد الرئيسية الأخرى في الكوة وأرقو وغيرها.

كان الهدف الأساسي من إكمال مراسيم التتويج بمعبد جبل البركل المقدس، هو إضفاء القدسية الإلهية على العرش وتأمينه من الطامعين فيه. وهذا ما أدى الى استمرار هذه المملكة قوية ومتماسكة لألف عام ونيف، وهي ظاهرة فريدة في تاريخ الأمم والشعوب القديمة والحديثة. ويعزى ذلك للإذعان المطلق من جانب المحكومين لعهود كان يباركها المعبود آمون.

إنَ هذه النصوص تؤكد تولي كل ملك من الملوك للعرش استناداً على إرادة المعبود آمون، ما قاد الى استمرار الحكم في الأسرة الحاكمة نفسها بلا انقطاع، وبالتقاليد الملكية نفسها. وهذا ما جعل هذه الأسرة تحتفظ بتقاليد راسخة في الحكم أدى الى استمرارها، الشيء الذي يؤكد أن هذه الطريقة هي التي ضمنت لهذه الأسرة ملوكاً أقوياء حافظوا على التقاليد التي ورثوها. وبقى جبل البركل ومعبد امون يقومان بالدور ذاته على امتداد المسيرة الكوشية، وعلى الرغم مما اعتراها من تحولات سياسية وغيرها، من انتقال المركز السياسي وتحول المدافن الملكية وما جابهها من حروب ضد الآشوريين والمصريين والفرس والرومان والأكسوميين. أما العوامل الحقيقية التي أدت الى انهيار تلك المملكة في منتصف القرن الرابع الميلادي بعد ما يزيد عن ألف عام من عمرها، فيبقى محل تقصى ودراسة.

د. جمال جعفر عباس الحسن: قسم الآثار - كلية الآداب والدراسات الإنسانية، جامعة دنقلا - السودان- العنوان البريدي: الخرطوم ص. ب ١٩٤٩ السودان.

المصادر والمراجع

أولا: المراجع العربية

الحاكم، احمد محمد وآخرون، ١٩٨٥، «**حضارة نباتا ومروي**» **في تاريخ إفريقيا العام ج٢**، أشراف جمال مختار اليونسكو، ص ص ٣١١-٣٢٨.

محمد، السماني النصري، ١٩٩٦، الملك الكوشي اسبلتا (٥٩٣-٥٦٨ ق.م) دراسة تاريخية رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم، الخرطوم.

محمد علي، العباس سيد احمد، وعبد القادر محمود عبد الله، ٢٠٠٠، «أصل الأسرة الخامسة والعشرين لمصر كما تعكسه الجبانة الملكية السودانية في الكرو»، **دراسات في آثار الوطن العربي**، ص ص ٩٢-١١٣. القاهرة.

بريستد، جيمس هنري، ١٩٦١، **تطور الفكر والدين في مصر القديمة**، ترجمة زكي سوس،دار الكرنك، القاهرة.

الزاكي، عمر حاج، ١٩٨٣، **الإله آمون في مملكة مروي** (٧٥٠ ق.م. -٣٥٠م)، دار النشر. الخرطوم.

ثانيا: المصادر والمراجع غير العربية

Budge,E.A., 1907. **The Egyptian Sudan, its History and Monuments**. 2Vols, London.

Budge,E.A., 1912. E**gyptian Religion. Annals of Nubian Kings with Sketch of the Nubian Kingdom of Napata**, London

Diodours Siculus, 1946. **Geografica,** Book 1-3 (trans. Oldfather C.H.Loeb, Classical Library, London.

Dunham, D. 1970. **The Barkal Temples**. Boston.

Emery, W.M.B.1965 . **Egypt in Nubia**, London.

Hakem, A.M., 1971. The Nature and Development of Meroitic Architecture (unpublished Ph.D. thesis, University of Cambridge.

Herodotus, 1920-1921. **Historae** Book II (trans. A.D. Godley) (Heineman).

Leclant, J. 1965. Recherches **Sur Les monyments thebains de XXVe Dynastie dite ethiopienn** (text) Le Caire.

Macadam, M.F., 1949. **The Temples of Kawa** I. 2 Parts, Part I the Inscriptions, and Part 2 the Plates. London.

Macadam, M.F., 1955. **The Temples of Kawa** II. 2Parts, Parts.I the Text, and Parts. II the Plates. London

Reisner, G.A., 1918. «The Barkal Temples in1916”.**JEA** 5: PP. 99-112

----------------. 1919. «Outline of the Ancient History of Sudan”, **SNR** 2: PP. 35-67.

Strabo, 1917-32. T**he Geography of Strabo** (trans.H.L.Jones,), London.

Vercoutter, J. 1960. «The Napatan Kings and Apis worship», **Kush** 8: PP. 62-76.